الباب الثاني

obeikandl.com

كولمبوس (١٤٤٦ او ١٤٥١ — ١٥٠٦)

اذا ذكرت الحوادث الخطيرة التي لها الشأن الاكبر في احوال البشر وجب ان يذكر معها اكتشاف اميركا واحتلالها لا من حين وصل اليها الناس اولاً وسكنوها بل من حين وصل اليها خريستوفورس كولمبوس وذهب اليها اهالي اوربا بعده واحتلوها وعمروها . لان وصول الاولين اليها لم يكن له شأن يذكر في احوال البشر واما استيطان الاوربيين لها فقد نتج عنه قيام جمهورية عظيمة فيها تضاهي أعظم الممالك ثروة واشدها منعة ، وانتظام ممالك وجمهوريات اخرى سائرة كلها او اكثرها في سبيل النجاح

وقد طلب الينا بعض الفضلاء ان نلخص لهم قصة ذلك الاكتشاف والاحتلال فجاء طلبهم منطبقاً على ما كنا نفكر فيه منذ مدة وهو وصف اشهر حوادث التاريخ الحديثة كاكتشاف اميركا وثورة فرنسا واحتلال الهند ونحو ذلك مما جعل عمران القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ارقى من كل عمران سبقه صناعة وتجارة وبوّأ الاوربيين منصة القضاء والسيادة في المسكونة فدان لهم اقيال الهند وسنوا السنن لملوك الصين وجابوا فيافي افريقية ومجاهلها وجعلوا ينشئون فيها الممالك

لما وصل خريستوفورس كولمبوس الى اميركا وجدها آهلة بالسكان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بعضهم قبائل رحل يعيشون بالصيد والقنص وبعضهم اهل حضارة ونعيم لهم المدن الفخمة والقصور المشيدة والهياكل الكبيرة والقرى والدساكر وبين هذين الطرفين اقوام متباينون في درجة حضارتهم

ولا يعلم من مصّر تلك القارة اولا ولاً من اين اتاها سكانها الاولون . ولاهل البحث في ذلك مذاهب شتى سنشير الى المذهب الاوجه منها

وكولمبوس كاشف اميركا للاوربيين رجل ايطالي ولد بجنوى سنة ١٤٤٦ او ١٤٥١ وابوه مشاط صوف فعلمه صناعته ثم بعث به الى مدرسة بافيا الجامعة فاقام فيها مدة قصيرة حتى اذا صار عمره اربع عشرة سنة ذهب في احدى السفن ملاحاً وجندياً حسبما كان الملاحون في ذلك العصر حتى اذا اشتد ساعده جعل رئيساً على سفينة وأرسل الى تونس ليوقع بسفينة من سفنها . وفي سنة ١٤٧٠ كسرت سفينته عند

رأس سنت فنسنت في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد البرتغال فركب لوحاً من الخشب وبلغ البر عليه . واقام في مدينة لسبون مدة واقترن فيها بابنة رجل ايطالي الاصل كان عاملاً من قبل ملك البرتغال على بورتو سانتو جزيرة صغيرة قرب جزائر مديرا غربي المغرب الاقصى . وذهب الى هذه الجزيرة واقام فيها مدة وكان يكتسب معيشته برسم الخرائط للبحارة فاضطر ان يبحث وينقب في خرائط حميه ويباحث شيوخ النوتية عما لقوه من المشاق في اسفارهم، فاستنتج من كل ما رآه وسمعه انه لم يزل جانب كبير من الارض مجهولاً ويمكن الوصول الى طرف آسيا الشرقي بالسير اليه غرباً واطلع طيباً فلورنسياً على هذا الرأي فاقنعه بصحته

وكان كثيرون قد ارتأوا مثل رأيه قبله وابعد واحد من اهالي البرتغال الفاً ومئتي ميل عن رأس سنت فنسنت غرباً محمولاً بتيار عنيف فوجد قطعة من الخشب طافية على وجه الماء وفيها آثار تدل على ان يد الانسان عملت بها . والتقط صهر كولمبوس انابيب كبيرة من القصب امام بورتو سانتو يسع الانبوب منها نحو اقتين من الخمر وهي مما لا ينبت إلا في بلاد الهند فهذه الامور وامثالها قوت اقتناعه بانه اذا واصل السير غرباً بلغ بلاد الهند

وسار سنة ١٤٧٧ حتى بلغ شمالي البلاد الانكليزية ولا يبعد ان يكون قد سمع وهو هناك عن وصول بعض اهالي بروج الى بلاد مجهولة واستيطانهم لها قبل ايامه بخمس مئة سنة وانقراض نسلهم منها . فعزم على الرحلة الى هذه البلاد وجعل يفتش عمن يمده بالمال والرجال وطلب ذلك اولاً من مجلس جنوى مسقط رأسه فرفض المجلس طلبه . ولما رأى ان أبناء وطنه لم يحفلوا به لجأ الى يوحنا الثاني ملك البرتغال فاحاله على لجنة من العلماء تنظر في المسائل الجغرافية التي من هذا القبيل . فكان قرارها على غير مراده . وكان الملك ميالاً الى البحث عن البلدان الجديدة فاشار عليه احد الاساقفة ان يرسل سفينة تضرب في عرض البحر الغربي خفية عن كولمبوس ففعل وبعث بالسفينة فسارت الى ان يئس بحارتها من طول الشقة فعادوا بها أدراجهم. وعرف كولمبوس ذلك فاغتاظ من هذه المخاتلة وبعث بكتاب الى الملك هنري السابع ملك الانكليز يعرض عليه رأيه ويطلب منه المساعدة على تحقيقه . ولا بد ان يكون قد وعده بأن يكتشف الارض الجديدة باسمه كما وعد غيره

ثم هرب من بلاد البرتغال الى اسبانيا وقصد دوق مدينة صيدونيا جنوبي اسبانيا

وطلب مساعدته فلم يحفل به بل حسب رأيه من قبيل الاوهام . فتركه وقصد دوق مدينة سلي فانزله على الرحب والسعة واكرم مثواه وعزم ان يجهزه بثلاث سفن ولكنه عاد فرأى ان العمل كبير فوق طاقته فاهمله . وعزم كولمبوس ان يستعين بملك فرنسا فصرفه هذا الدوق عن عزمه وكتب الى الملكة ايزابلا [1] ملكة قشتالة (Castilla) يتوسل اليها ان لا تدع عملاً مثل هذا يذهب الى الغرباء فامرت بمجيء كولمبوس اليها الى قرطبة (Cordova) وكانت الحرب ناشبة بين العرب نزلاء اسبانيا وبين اهلها الاصليين فلم تجد الملكة ايزابلا مجالاً للنظر في طلب كولمبوس لكنها اكرمت مثواه وامرت واحداً من خواصها ان ينظر في طلبه . ولم يكن الا القليل حتى اقنع كثيرين بصدق دعواه وسار مع حاشية الملكة الى سلمنكا ولقي هناك الكردينال مندوزا صاحب الصول والطول في اسبانيا . وظن هذا الكردينال اولاً ان في رأي كولمبوس رائحة الكفر لكنه اقتنع بصحته حالاً واقنع الملك فردينند زوج الملكة ايزابلا حتى قابل كولمبوس وسمع ما يقوله واحاله على مجلس من علماء الفلك والجغرافية سنة ١٤٨٧ فبسط كولمبوس ادلته لاعضاء هذا المجلس فناقضوه وقاوموه واستدلوا على فساد آرائه بكثير من آيات التوراة واقوال آباء الكنيسة وبعد جدال طويل دام نحو ثلاث سنوات اقر المجلس على ان رأيه باطل لا يعمل به

وكان كولمبوس في كل هذه المدة يسير في حاشية الملك والملكة وهما يحاربان العرب وحضر حصار مالقة (Malaga) فلما حكم المجلس برفض طلبه سار قاصداً فرنسا ودخل في طريقه ديراً في الاندلس وطلب ماء وطعاماً لابنه فسأله رئيس الدير الى اين يقصد فاخبره بقصده فدعاه الى داخل الدير وكان فيه طبيب ماهر في علم الجغرافية فاخذ يباحثه في امر الوصول الى الهند فاقنعه كولمبوس بصحة رأيه وكان رئيس الدير قبل ذلك معرفاً للملكة ايزابلا فكتب اليها عن كولمبوس فاتاه الجواب منها ان يأتي اليها به وارسلت اليه نفقات السفر . ووصل الى غرناطة وقتما استلمها الاسبانيون من العرب

وطلب من كولمبوس حينئذ ان يبين الشروط التي يشترطها لكشف هذه البلاد الجديدة فطلب ان يعطى لقب امير البحر (اميرال) ويجعل والياً على كل البلدان التي يكتشفها وعشر ما يرد منها سواء كان من الغنائم او من التجارة فرفض طلبه . وفي

(١) انتقل اليها ملك قشتالة بعد وفاة اخيها الملك هنري الرابع واقترن بها فردينند ملك اراغون وصقلية

شهر يناير من سنة ١٤٩٢ اقلع من اسبانيا قاصداً فرنسا ولكن تشفع بعضهم في امره لدى الملكة واقنعها بمساعدته فارسلت اليه رسولاً ادركه على غلوتين من غرناطة ورده اليها وفي السابع عشر من ابريل سنة ١٤٩٢ أمضى الاتفاق بينه وبين الملكة وزوجها ولم يكن اعداد السفن والبحارة بالامر السهل لانه لم يكد يجد من يخاطر بنفسه مثله في مجاهل البحار . وبعد عناء شديد اعدت له ثلاث سفن وهي سنتا ماريا وفيها خمسون بحاراً وكانت ادارتها في يده والبنتا وفيها ثلاثون بحاراً وقيادتها في يد مارتن بنزون والنينا وفيها ٢٤ بحاراً وقيادتها في يد اخيه فنسنت بنزون وجملة النفوس ١٢٠ . واقلعت هذه السفن يوم الجمعة في الثالث من اغسطس سنة ١٤٩٢ ووجهتها جزائر كناري وبعد ثلاثة أيام اضاعت البنتا دفتها فاضطر كولمبوس ان يرسو بسفنه في مرفأ تناريف مدينة كناري ليصطنع لها دفة غيرها وعاود السير في السادس من سبتمبر وفي الثالث عشر منه شاهد رجاله انحراف الابرة المغنطيسية اول مرة عن الشمال والجنوب فارتاعوا من ذلك وزاد ارتياعهم بعد يومين اذ رأوا نيزكاً كبيراً وقع من السماء على مقربة منهم . وبلغوا في اليوم التالي مكاناً رهواً ولقوا نسيماً عليلاً تطيب به النفوس فاطمأنوا ثم زاد انحراف الابرة المغنطيسية فزاد اضطرابهم إلا ان كولمبوس فسر لهم ذلك بما سكن روعهم . وشاهدوا حينئذ كثيراً من طيور البحر فايقنوا انهم مصيبون براً عن قريب ولما لم يصلوا الى البر تذمروا وتمردوا وكانوا يشاهدون احياناً ما يظنونه براً قريباً فتطيب نفوسهم حتى اذا بلغوه ورأوه سراباً بقيعة عادوا التذمر والتمرد الى ان كان الحادي عشر من اكتوبر فالتقطت بحارة البنتا قناة وقطعة من الخشب وعصاً ولوحاً وشاهدت بحارة النينا وتداً عليه نبات مزهر . وفي المساء شاهد كولمبوس نوراً في الافق وفي الساعة الثانية صباحاً رأى البر بحار من بحارة النينا وكان هذا البر اول جزيرة من جزائر اميركا وقد ظن اولاً انها الجزيرة المسماة الآن سان سلفادور ثم اتضح انها الجزيرة المسماة الآن سامنا. ونزل فيها كولمبوس ذلك الصباح وهو لابس حلة فاخرة ومعه العلم الاسباني ونزل معه الربانان الآخران وفريق كبير من البحارة وركعوا على ركبهم وشكروا الله والدموع ملء عيونهم وتقدم اليه البحارة الذين تمردوا عليه قبلاً واسترحموه وطلبوا عفوه

والجزائر هناك كثيرة قريبة بعضها من بعض فاكتشف كولمبوس كثيراً منها واشهرها واكبرها جزيرة كوبا وجزيرة هايتي وسمى هايتي (هسبانيولا) وارتطمت

سفينته عندها لاهمال بحارتها لها فاضطر ان يخرج كل الامتعة منها ويتركها هناك وانشأ مستعمرة في تلك الجزيرة وترك فيها ٤٣ نفساً من بحارته واقلع في النينا في السادس عشر من شهر يناير سنة ١٤٩٣ قاصداً اوربا وكانت البنتا قد افترقت عنه فتبعته بعد اربعة ايام وبعد عناء شديد بلغ مرفأ لسبون في الرابع من شهر مارس فاستقبله ملك البرتغال بالاكرام والترحاب

وكان بلاط الملكة ايزابلا في برشلونة فمضى كولمبوس اليها فاستقبلته هي وزوجها ورجال بلاطهما وقص عليهم اخبار سفره وأراهم بعض ما اتى به من الذهب والقطن والاسلحة والنباتات الغريبة والطيور والوحوش وتسعة من هنود اميركا جاء بهم معه . فاقر الملك والملكة على ما منحاه قبلاً من الالقاب والامتيازات ونودي قدامه كعظيم من عظماء اسبانيا وصنع له ترس عليه شعار قشتالة وليونة اي القصر والاسد

وفي الخامس والعشرين من شهر سبتمبر اقلع بثلاث سفن كبيرة واربع عشرة سفينة صغيرة و١٥٠٠ رجل وكثير من الادوات اللازمة للاستعمار فبلغ جزائر الهند الغربية التي بلغها اولاً واكتشف جزائر كثيرة لم يكتشفها قبلا وبلغ جزيرة هايتي فوجد المستعمرة التي انشأها فيها قد لعبت بها ايدي سبا فعزم على انشاء مستعمرة غيرها

الى الآن كان كولمبوس يكتشف الجزائر التي لم تراها عين الاوربيين قبله فنجح في ذلك نجاحاً بيناً ولكنه حالما شرع في استعمار تلك الجزائر واستخراج الذهب منها وسلب الغنائم من اهلها توالت النوائب عليه لان هواء البلاد لم يوافق الاسبانيين واهاليها الذين رحبوا بهم اولا ثم قلبوا لهم ظهر المجن الآن وقابلوهم بالعدوان . ومرض هو حتى كاد يقضي نحبه ولما شفي رأى ان لا بد له من اخذ الهنود بالقوة فاسر منهم خلقاً كثيراً وارسلهم الى اسبانيا فبيعوا فيها عبيداً وضرب الجزية الفاحشة على الذين بقوا فى البلاد منهم

وقام له خصوم في بلاط اسبانيا حسداً فوشوا به واوغروا الصدور عليه فبعث الملك والملكة واحداً يبحث عن اعماله فاوجس كولمبوس شراً وعاد الى اسبانيا في ١١ مارس سنة ١٤٩٦ فوصل الى قادس في ١١ يونيو واقنع الملك والملكة باستقامته ونجاح عمله وطلب منهما ثماني سفن للاستعمار وست سفن لمواصلة الاكتشاف . ولم تكن خزينة اسبانيا في حالة راضية لكن الملكة كانت شديدة الرغبة في اجابة طلبه وجهزت له ست سفن فاقلع بها في ٣٠ مايو سنة ١٤٩٨ وبعد عناء شديد رأى احد

البحارة ارضاً لم يروها قبلاً وثلاث انداد اي تلال فيها فسموها ترينداد اي الانداد الثلاث وهو اسمها الى اليوم . وفي غرة اغسطس سنة ١٤٩٨ رأى طرف البر من قارة اميركا الجنوبية فظنه جزيرة وظل يسير غرباً وهو يرى الرؤوس الناتئة من البر فيظنها جزائر الى ان رأى الماء الغزير الذي ينصب من نهر اورينوكو فحكم ان البلاد قارة كبيرة وانها هي ضالته المنشودة

ثم افتقد المستعمرات التي انشأها في طريقه فوجدها في حالة يرثى لها لان اهاليها ثاروا بالسكان او ثار السكان بهم ونشبت الحروب بينهم وسفكت الدماء واسر رجاله كثيرين من السكان وبعثوا خمس سفن الى اسبانيا مشحونة بالاسرى عبيداً. فاغتاظت الملكة ايزابلا من ذلك وقالت من اباح له ان يأسر هؤلاء المساكين وامرت ان ينادى في اشبيلية (Seville) وغرناطة وغيرهما من المدن الكبيرة بعتق كل العبيد الذين اتي بهم من جزائر الهند الغربية اخيراً . فاغتاظ الذين اتوا بهم من هذه الخسارة ولم يجدوا سبيلاً لتنفيس كربهم إلا بالتظلم من كولمبوس واخويه واجتمعوا في ساحة الحمراء وعلا صياحهم فاصغت الملكة اليهم وعينت رجلاً اسمه بوبادلا حاكماً على هايتي وامرته ان ينزع الولاية من كولمبوس ويبحث عن حقيقة الشكاوي ويرفع ظلامة المتظلمين

وكان كولمبوس قد اخمد ثورة الثائرين في هايتي ونصّر اهاليها واستخرج كثيراً من الذهب حتى بلغ نصيب الدولة الاسبانية منه ستين مليوناً من الريالات ولكن وصل بوبادلا الوالي الجديد حينئذ واستولى على بيت كولمبوس وقبض عليه وعلى اخويه ورفعت الشكاوى عليهم بانهم مرتشون ظالمون عتاة حتى رأى كولمبوس انه غير ناج من القتل لكن بوبادلا لم يقتله بل كبله بالقيود هو واخويه وبعث بهم الى اسبانيا

وكان ربان السفينة التي ارسلوا فيها على جانب من الشهامة فاراد ان يفك قيود كولمبوس فلم يقبل بذلك بل قال له يجب ان تبقى هذه القيود كما هي الى ان يفكها الملك والملكة ثم احتفظ بها تذكاراً للجزاء الذي نلته . وفعل كما قال وعلق هذه القيود بعد ذلك في غرفته لتدفن معه بعد موته

ووصلت السفينة بكولمبوس واخويه وهم في القيود وكتب كولمبوس الى السيدة التي كانت تربي ابنة الملك كتاباً يلين الجماد بما فيه من التظلم والتذلل واطلعت عليه الملكة فرقت له ورثت لحاله ومال اليه كل اهل البلاد ففكت قيوده وقوبل بالاكرام

والاجلال حتى يقال ان الملكة بكت لما سمعته يقص قصته . وعزل بوبادلا من الولاية وعين وال آخر بدلاً منه وانهالت الهبات الملكية على كولمبوس ولكن لم يرد الى ولاية البلاد التي اكتشفها

وكانت نفس كولمبوس لا ترضى بالسكينة والراحة فطلب ان يجهز بسفن اخرى ليذهب ويكتشف طريقاً يصل الى المشرق الاقصى الى املاك البرتغاليين في اسيا فاعطي اربع سفن و١٥٠ بحاراً وامر ان لا يدخل جزيرة هايتي فاقلع من قادس فى ٩ مايو سنة ١٥٠٢ واكتشف جزيرة مرتنيك في ١٣ يونيو وثارت عليه العواصف فاضطرته ان يلجأ الى هايتي ولكن واليها منعه من النزول فيها . وبعد مشاق يطول وصفها وصل الى البرزخ الموصل بين اميركا الشمالية واميركا الجنوبية فوجد هناك ذهباً كثيراً وانشأ مستعمرة ترك فيها ثمانين من رجاله ولكن ثارت الفتن بينهم وبين السكان الاصليين حالاً فاضطر ان يترك لهم سفينة من سفنه ليعودوا بها الى وطنهم وعاد هو بطريق كوبا واخذ الزاد من اهاليها وسار الى جمايكا وجنحت سفنه هناك في مكان يسمى كهف خريستوفورس الى الآن وهش له السكان وانزلوه على الرحب والسعة لكن رجاله اساءوا اليهم فابتعدوا عنه ومنعوا عنه الزاد الى ان انبأهم بخسوف قريب فخافوه وعادوا الى اكرامه . وكان قد ارسل يطلب النجدة من الجزائر الاخرى التي نزلها الاسبانيون فاتته سفينتان عاد بهما الى اسبانيا فبلغها فى ٧ سبتمبر سنة ١٥٠٤ بعد عناء شديد ومخاطر كثيرة

وتوفى في ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ ودفن في اسبانيا اولاً ثم نقل الى هايتي ودفن في كنيستها . ولما انتقل قسم اسبانيا من تلك الجزيرة الى فرنسا نقلت رفاته الي هافنا بكوبا . ويقال ان رفاته لا تزال في هايتي والتي نقلت انما هي رفات ابنه ففي سنة ١٨٧٧ وجد قبر في كنيسة هايتي عليه حروف تدل على انه قبر « مكتشف اميركا الاميرال الاول » وعلى التابوت الذي فيه ثلاثة حروف . C.C. A خريستو فورس كولمبوس الاميرال

وكان كولمبوس طويل القامة كبير العينين جميل المنظر شاب شعره وهو في الثلاثين من عمره . وكان غير متأنق فى مأكله ومشربه ولباسه شديد التدين يكثر من الصوم والصلاة حتى يظن من يراه انه من الرهبان . عالي الهمة يقتحم المخاطر لنيل مقاصده غير مبال بخداع المخادعين وختل المخاتلين (مقتطف اكتوبر سنة ١٩٠١)

اميركوس فسبوشيوس (١٤٥١ — ١٥١٢)

الرائد الذي دعيت قارتنا اميركا باسمه

بسطنا الكلام في الفصل السابق على كولمبوس مكتشف اميركا للاوربيين . ولا بد من ان يستغرب القراء ان تلك القارة العظيمة لم تسمّ باسمه بل باسم رجل آخر اميركوس فسبوشيوس وهو رجل من اهالي فلورنسا كان كاتباً في بيت مديشي اشهر تجار تلك المدينة وارسله هذا البيت الى اسبانيا سنة ١٤٩٠ فاقام في قادس ثم انتقل الى اشبيلة وانتظم في خدمة تاجر فلورنسي اسمه برارديي وهو الذي هيأ السفن لرحلة كولمبوس الثانية سنة ١٤٩٣. ثم اخذ في اعداد اثنتي عشرة سفينة لملك اسبانيا ولكنه توفى سنة ١٤٩٥ قبل ان يعهدها فطلب من اميركوس ان يتمم اعدادها

ولا دليل على ان اميركوس سافر مع كولمبوس في سفرته الاولى ولا في سفرته الثانية ، ولكن لابد من انه كان يعرفه ويعرف ايضاً ان ملك اسبانيا استرجعه بعد سفرته الثانية ونزع منه الامتياز الذي اعطاه اياه اولاً . وكان كثيرون قد رغبوا في الرحلة الى العالم الجديد ويقول اميركوس انه رحل مع بعضهم اليه في اواسط سنة ١٤٩٧ فبلغوا بره في ٢٧ يوماً . فان كان صادقاً في وصفه فيكون قد بلغ مع رفاقه خليج كمبيشي في الطرف الجنوبي من خليج المكسيك ثم داروا شمالاً وشرقاً حتى بلغوا رأس سابل في طرف فلوريدا الجنوبي من الولايات المتحدة الاميركية وساروا منه شمالاً الى رأس هتراس شرقي ولاية كارولينا الشمالية . وعادوا الى اسبانيا فبلغوها في الخامس عشر من اكتوبر سنة ١٤٩٨

وسافر اميركوس مرة ثانية في ١٦ مايو سنة ١٤٩٩ فبلغ شاطىء برازيل عند رأس سنت روك وسار من هناك شمالاً حتى بلغ مصب نهر الامازون وعاد الى اسبانيا فبلغ مرفأ قادس في ٨ سبتمبر سنة ١٥٠٠ ودخل في خدمة عمانوئيل ملك البرتغال وسافر الى برازيل في ١٠ مايو سنة ١٥٠١ فبلغ ريو جنارو في غرة يناير سنة ١٥٠٢ فسميت باسم ذلك الشهر وهي عاصمة بلاد برازيل الآن وعاد الى لسبون فبلغها في ٧ سبتمبر سنة ١٥٠٢ ثم سافر سفرة رابعة سنة ١٥٠٣ قام من لسبون في العاشر من

يونيو بست سفن قاصداً ان يصل الى ملقا في اقصى الهند بالسير غرباً وافترقت سفينته عن سفن رفاقه فبلغ رأس فريو شمالي ريو جنارو حيث بنى حصناً . وعاد الى لسبون فبلغها في ١٨ يونيو سنة ١٥٠٤ وانتقل منها الى اسبانيا في السنة التالية ورجع الى خدمة الملك فرديننڈ واقام في اشبيلية ويقال انه سافر بعد ذلك مرتين الى اميركا فبلغ برزخ بناما وعين رباناً اكبر سنة ١٥٠٨ وتوفى سنة ١٥١٢

فان كان خبر اميركوس صحيحاً فيكون قد اكتشف بر اميركا قبل كولمبوس وقبل كابوت البندقي نزيل انكلترا الذي سار اليها بامر من الملك هنري السابع سنة ١٤٩٧ فوصل الى الارض الجديدة في ٢٤ يونيو من تلك السنة وسار امام شاطئ اميركا الشمالية الى حد فلوريدا وذلك قبلما رأى كولمبوس البر بنحو سنة من الزمان . والظاهر انه

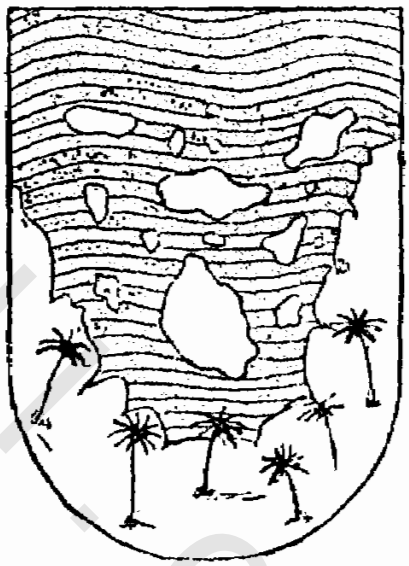

(الشكل الاول)

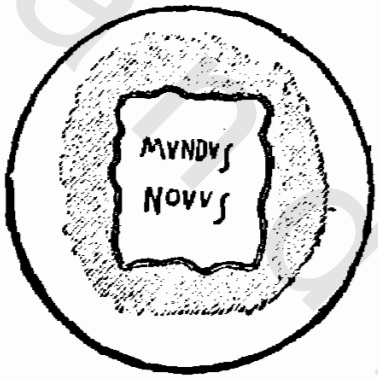

(الشكل الثاني)

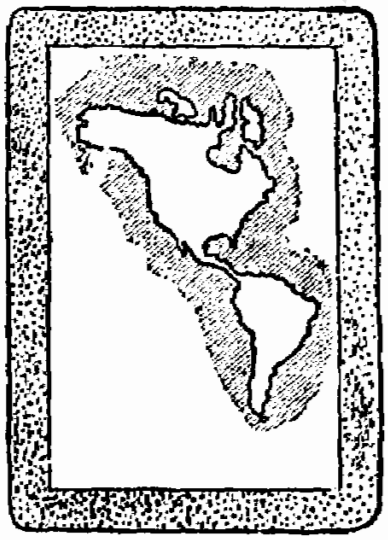

(الشكل الثالث)

اقنع اهل زمانه بصحة خبره سواء كان صحيحاً او غير صحيح فكتب بعضهم مقدمة جغرافية سنة ١٥٠٧ قال فيها « لقد كشفت قارة خامسة من قارات الارض كشفها اميركوس ولذلك سميناها اميركا » . وقال في مكان آخر لقد « كشف اميركوس ڤسبوشيوس قارة رابعة فلا ارى ما يمنع تسميتها باسمه اميركا » فسميت باسمه ثم بحث همبلت الشهير عن دعوى اميركوس فرأى ادلة قوية على فسادها ولكن كان ذلك سنة ١٨٣٧ اي بعد ان اشتهر اسم اميركا باكثر من ثلثمئة سنة

وحالما اشتهر اكتشاف كولمبوس وغيره من الذين اقتفوا خطواته جعل الناس

يظنون الظنون في شكل العالم الجديد واخذ صانعو الخرائط يجمعون اخبار الذين رأوه لكي يصلحوا خريطة العالم . والظاهر ان اول خريطة رسمت له كانت في شعار كولمبوس نفسه على ترسه كما ترى في الشكل الاول المرسوم ههنا ويقال ان كولمبوس نفسه رسم هذا الرسم على ترسه ممثلاً به مرفأ من مرافئ اميركا التي دخلها والجزائر امامه. وضاع هذا الرسم فلم ينتبه احد له الى ان اظهره العلامة همبلت في القرن الماضي

ويتلو هذا الرسم في القدم والبعد عن الحقيقة رسم صنع سنة ١٥٠٠ جعلت فيه قارة اميركا مربعةً كما ترى في الشكل الثاني وكتب فيها ما معناه (العالم الجديد) فكان ذلك قبل ان اطلق عليه اسم اميركا . قابل هذا الشكل بالشكل الثالث الذي يليه وهو خريطة اميركا الشمالية والجنوبية حسبما تعرف اليوم تجد بينهما بوناً شاسعاً لا لان

(الشكل الرابع)

البلاد تغير شكلها فانها لم تتغير منذ الوف كثيرة من السنين بل لان معرفة الناس بها زادت رويداً رويداً حتى بلغت حد الكمال وقد تدرجت اليه تدرجاً شأن كل معارف البشر

ومن الخرائط القديمة التي رسمت لاميركا بعد ان اطلق عليها هذا الاسم خريطة شونر Schöner المرسومة في الشكل الرابع رسمها سنة ١٥٢٠ ويظهر منها ان اميركا الشمالية لم تكن معروفة حينئذ لان المرسوم هنا هو اميركا الجنوبية وجزيرة كوبا وجزيرة ازابلا واسبانيولا

وتوالى عمل الخرائط الى ان قام مركاتور الشهير ورسم خريطة اميركا الشمالية

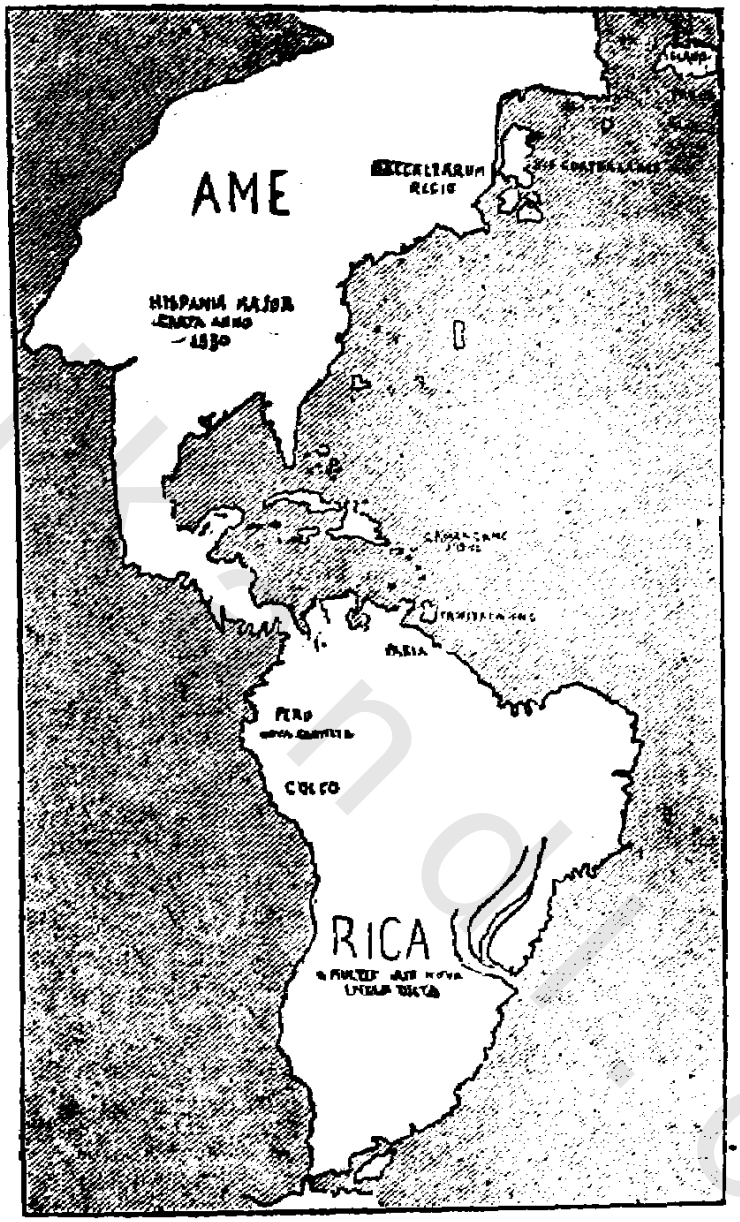

الشكل الخامس

والجنوبية رسماً يقرب من الحقيقة كما ترى في الشكل الخامس وعلى خريطته تاريخ سنة ١٥٣٠ ولكن يقال انه رسمها سنة ١٥٤١

(مقتطف نوفمبر سنة ١٩٠١)

العربية في اميركا قبل كولمبوس

ان يكون الناس قد دخلوا اميركا وسكنوها قبل كولمبوس وقامت لهم دول فيها اينع عمرانها حتى فاق عمران الاسبانيين فاتحيها امر لا جدال فيه، واما ان يكون العرب قد وصلوا الى اميركا وسكنوها قبلما قصد اليها كولمبوس فامر قلما خطر على بال احد. لكن نشر في السنوات الاربع الماضية كتاب كبير في ثلاثة مجلدات الفه عالم من علماء جامعة هارفرد اسمه ليو وينر Leo Wiener عنوانه افريقية وكشف اميركا اثبت مؤلفه وجود كلمات عربية في لغات هنود اميركا

يعرف هذا المؤلف ٢٦ لغة وقد شرع منذ سنوات في تعلم لغات هنود اميركا كما دونها المرسلون اليسوعيون (في عهد كورتز القائد الاسباني الذي فتح المكسيك) ليرى ما فيها من الكلمات والتعابير التي قد يستدل منها على الشعوب الذين اتصلوا باولئك الهنود في غابر الزمن فوجد فيها كثيراً من الكلمات الانكليزية والاسبانية والفرنسوية والبرتغالية واقدم من هذه كلها كلمات عربية. وقال بعد نشر كتابه انه يرجع اقدم هذه الكلمات الى سنة ١٢٩٠ اي الى قرنين قبلما وصل كولمبوس الى اميركا وقد يكون اصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين

وتدل المباحث الحديثة في السجلات القديمة على ان سفن التجار كانت تمخر عباب الاوقيانوس الاتلنتيكي كل سنة للاتجار وكانت تخفي اعمالها عن غيرها حتى تبقى مستأثرة بالكسب. ومن ذلك ان البيوت التجارية في ديب وروان من ثغور فرنسا كانت ترسل سفنها الى غانة على الشاطىء الغربي من افريقية قبل زمن كولمبوس بمائة سنة لجلب الذهب والعاج والطيوب والجلود والحجارة الكريمة وما اشبه. والمرجح انها كانت ترسلها الى اميركا الجنوبية أيضاً. وانه كان لهذه البيوت نظام تجاري كنظام البيوت التجارية الآن من غير ابهة لكي يبقى عملها سراً فلا يكثر المزاحمون لها، ولكي لا يطمع بها الملوك والحكام فيقاسموها ثروتها، ولذلك كانت سفنها تخرج من مرافئها خلسة وتعود اليها خلسةً. وقد ثبت الآن ان مدينة ديب بقيت مركزاً لهذا النوع التجارة بضعة قرون قبل ولادة كولمبوس. وكان كل ربان سفينة يصف لمستخدمه حين رجوعه ما شاهده في اسفاره. ودامت الحال على هذا المنوال الى سنة ١٦٩٤

حين نشبت الحرب بين فرنسا وانكلترا فاطلق الانكليز مدافعهم على ديب وخربوها وخربوا بيوت اولئك التجار واتلفوا كل ما فيها

ولكن كان للتجار في ذلك العصر مشاكل ودعاوى كما لهم الآن ، وكانوا يرفعون دعاويهم الى مجلس القضاء فتسجل في سجلات المحاكم بالتفصيل ، وقد وجدت هذه السجلات ووجد الباحثون فيها حوادث كثيرة بتواريخها المختلفة ، من ذلك انه كان في مدينة ديب بيت تجاري اسمه بيت اغنوت بقي روشيلد عصره من سنة ١٤٧٠ الى سنة ١٥٥١ . وكان قد صار في مقام رفيع من الثروة واتساع التجارة سنة ١٤٧٠ دلالة على انه نشأ منذ سنين كثيرة قبل ذلك . وتدل الدلائل ايضاً على انه كان لمدينة ديب تجارة واسعة مع ساحل غانة في غرب افريقية قبلما ادعى البرتغاليون اكتشافها سنة ١٤١٩ وان رجلاً فرنسوياً اسمه جان كوزن وصل بسفنه الى برازيل سنة ١٤٨٩ ثم عاد وسار محاذياً لساحل افريقية الجنوبي الى ان وصل الى رأس الرجاء الصالح ثم عاد أدراجه الى ديب ، وكان معه لما خرج من ديب وسار غرباً رجل اسباني اسمه بنزون وهو شجاع حاد الطبع فاختلف مع بعض السكان واطلق عليهم النار فأنبه رئيسه وقاصه ولما عادت السفن الى ديب شكاه الى الحكومة فاخذت الجواز منه ومنعته من السفر بحراً فعاد الى اسبانيا ماشياً فلقيه كولمبوس واخذه معه هو واخوين له وسلمه قيادة سفينة من سفنه الثلاث واعتمد على خبرته . ويقال في مذكرات كولمبوس ان بنزون هذا كان يحاول السير جنوباً اي الى جهة برازيل التي عرفها من قبل وكان كولمبوس يشكو من حدة طبعه . ولما وصلوا الى البر انفرد بنزون بسفينته وسار بها جنوباً واستمر سائراً ثلاثة اسابيع ولقيه كولمبوس صدفة عند ساحل كوبا الجنوبي . ويظهر من ذلك ان بنزون هذا كان قد وصل الى اميركا قبل كولمبوس، وان كولمبوس كان يعلم ذلك وانه اخذه معه كمرشد له

وقد ذكر كولمبوس لدى رجوعه من رحلته الثالثة انه وجد زنوجاً في البلاد التي كشفها اي في اميركا وذكر ايضاً ان الهنود (اي سكان اميركا) الذين لقيهم في رحلته الاولى اهدوا اليه شيئاً من الجوانين (ومعنى الجوانين في ذلك العصر شذور الذهب الممزوج بالنحاس التي كان يؤتى بها من غانه في الجنوب الغربي من افريقية ومنها اسم الجنيه بالانكليزية) وعليه فكولمبوس وجد في اميركا زنوجاً وذهباً افريقياً فلا بد من ان يكون قد سبقه اليها اناس معهم الزنوج وشذور الذهب الافريقي الممزوج

بالنحاس[١] والظاهر ان كولمبوس اخذ معه زنوجاً افريقيين ليكونوا تراجمة بينه وبين هنود اميركا لان الزنوج الذين فيها يعرفون لغة اهلها. واولئك الزنوج خلاسيون اي ان اباءهم من البيض وامهاتهم من الزنوج فزنوج افريقية عرفوا اميركا قبل كولمبوس

وفوق ذلك فقد ذهب بعض الباحثين الآن الى ان عمران الازد والمايه عمران عربي محض ، وان الازد والمايه مستعمرات عربية وجدت في اميركا بين سنة ١١٥٠ وسنة ١٢٠٠ للميلاد، والعمران العربي بلغ اوجه في افريقية في القرن التاسع المسيحي وامتد جنوباً الى مندنجو في غرب افريقية ومن هناك وصل الى مشوا كان على شاطىء خليج المكسيك لان آثار العربية في لغات اميركا ترد كلها الى ذلك المكان والى مندنجو وهي الكلمات التي تبقى عادة من لغة الغالب في لغة المغلوب كالكلمات الطبية والسياسية . ولما انقطع اتصال العرب باميركا ذوى عمران الازد والمايه لانه كان مبنياً عليهم وكان في اساسه تجارياً. هذا وقد لخصنا ما تقدم من مقالة للمستر برتن كلين في جزء فبراير من مجلة العالم اليوم World Today وابناء العربية في هذا القطر وسائر الاقطار احرى الناس بالبحث عن صحة هذا النبإ . ونحن نستبعد ان يكون العرب دخلوا اميركا ولم ينشروا فيها الاسلام او ان يكون الاسلام انتشر فيها ثم انقرض منها قبل وصول الاسبانيين اليها، ولكننا نرجح ان يكون الذين ادخلوا اليها الكلمات العربية اناساً من البربر او من الافريقيين الذين تعلموا العربية، فان ابن بطوطة الرحالة المشهور الذي ضرب في اكثر البلاد الافريقية شرع في رحلته سنة ١٣٢٤ للميلاد سنة (٧٢٥ هـ) فوجد العربية منتشرة فيها . وكان ذلك قبل رحلة كولمبوس الاولى باكثر من ١٥٠ سنة . ولا يمكن القول الفصل في هذه المسألة إلا بعد الاطلاع على كتب وينر والوقوف على أدلته واسانيده

وعسى ان يهتم المطلعون على التواريخ والرحلات العربية بالبحث عما فيها مما يؤيد ذهاب العرب الى اميركا بين القرن التاسع والخامس عشر غير حديث الاخوة المغرورين لان ذلك الحديث لا يروي غليلاً ولا يبعد ان يوجد في مكاتب اسبانيا والمغرب الاقصى وتونس والجزائر والقيروان ما يشير الى اسفار تجار العرب في تلك القرون كما وجدت رحلة ابن بطوطة. ومن العار علينا ان يعرف رجل اميركي من تاريخ العرب وآثارهم في اميركا اكثر مما نعرف نحن (مقتطف اغسطس سنة ١٩٢٦)

(١) كانوا يمزجون الذهب بقليل من النحاس حتى يصلب ويلمع اذا صقل وقد حللت شذور الذهب التي جاء بها كولمبوس من اميركا فوجد فيها من النحاس قدر ما يوجد في شذور غانة

مجلان

اول من طاف حول الارض

ولد في البرتغال سنة ١٤٨٠ وكان ابوه من اشراف البلاد فنشأ في حاشية الملكة لنور زوجة الملك يوحنا الثاني ملك البرتغال . ثم اتصل بحاشية الملك مانويل خلف الملك يوحنا ولما كان في الرابعة والعشرين من عمره انضم الى المتطوعين الذين سافروا في ركاب اول نائب عن ملك البرتغال الى بلاد الهند . وخاض في الهند معارك كبيرة ابلى فيها بلاء حسناً وجرح في معركة كنانور وشهد افتتاح مدينة ملقا وسافر شرقاً لاكتشاف جزائر الافاويه فمر من شمال جزيرة جاوى فبينها وبين جزيرة مدورا ثم قطع ارخبيل سليبس حتى وصل الى جزيرة بندا فوجد فيها من الافاويه ما يفوق الوصف فقفل راجعاً الى ملقا . وفي هـذه الرحلة شهد امامه انبساط الاوقيانوس الشرقي الذي دعاه بعدئذ بالباسفيكي اي الهادئ وهو اسمه الى الآن

عاد الى البرتغال سنة ١٥١٢ بعد ما نال لقب قبطان جزاء له على شجاعته ومهارته وفي سنة ١٥١٣ رافق الحملة البرتغالية التي سافرت الى شمال افريقية لافتتاح مدينة في المغرب الاقصى فجرح في الحصار ولكن البرتغاليين افتتحوها عنوة . واتهم بعد ذلك انه خان وطنه بمحاولته الاتفاق مع البربر لكنه نفى هذه التهمة بوثائق ايدت اقواله : على ان مليكه كان قد اخذ يصرف نظره عنه لسبب مجهول وافهمه انه لايريده في بطانته فغادر بلاده الى اشبيلية فوصلها في ٢٠ اكتوبر سنة ١٥١٧ ومنها ذهب الى بلاط ملك الاسبان في فلادوليد فتخلى عن جنسيته البرتغالية وتقلد الرعوية الاسبانية بواسطة رجل برتغالي الاصل ذي نفوذ كبير في بلاط ملك اسبانيا

وتزوج مجلان ابنة هذا الرجل فساعده في ان يعرض على الملك المشروع الذي اعده للطواف حول الارض ويتلخص هذا المشروع في محاولة الوصول الى جزائر الافاويه بالسفر غرباً . وكان مجلان يأمل ان يكتشف عند طرف اميركا الجنوبية مضيقاً يتصل منه الى الجانب الآخر من اميركا وقال انه مستعد للسفر جنوباً الى ان يبلغ الدرجة ٧٥ من العرض الجنوبي لاكتشاف هذا المضيق . وساعده في اعداد خطته فلكي برتغالي نفي من بلاده يدعى فاليرو . وفي ٢٢ مارس سنة ١٥١٨ وقع مجلان

وفاليرو وثيقة رفعت الى ملك اسبانيا وعدا فيها بان يكون لهما $\frac{1}{20}$ من كل الغنائم التي يصيبانها والباقي يعود لحكومة اسبانيا لقاء مساعدتها المادية والادبية، ومنحا ايضاً الحق في اقامة حكومة في كل البلدان التي يكتشفانها يتولاها ابناؤهم واحفادهم بالوراثة . وفي

مجلان اول من طاف حول الارض

العاشر من اغسطس سنة ١٥١٩ اقلع الاسطول الذي اعدته له الحكومة الاسبانية وهو مؤلف من خمس سفن اكبرها سفينة تدعى سانت انطونيو محمولها ١٢٠ طناً

والثانية ترنداد ومحمولها ١١٠ اطنان وكانت هذه السفينة امتن السفن كلها فجعلها مجلان « سفينة العلم » ثم الكونسبسيون ومحمولها ٩٠ طناً والفتوريا ومحمولها ٨٥ طناً وسنتياغو ومحمولها ٧٥ طناً . ولم يعد الى اسبانيا من كل هذه السفن سوى الفتوريا كما سيجيء . وكان عدد الرجال الذين سافروا معه ٢٧٠ رجلاً أو ٢٨٠ اكثرهم اسبان وبينهم ٥٧ على اقل تقدير من البرتغاليين و٣٠ من الطليان من (جنوى) و١٩ من الفرنسويين وانكليزي واحد والماني واحد رجع منهم في السفينة فتوريا ٣١ رجلاً اما فاليرو الفلكي فتخلف عن السفر لانه استطلع مصير الرحلة بوسائله الفلكية فزعم انها صائرة الى الاخفاق ورجالها الى الهلاك . وجملة ما انفق على تجهيز هذا الاسطول بلغ ٥٠٣٢ جنيهاً وقيمتها حينئذ تساوي نحو ١٥٠ الف جنيه من نقودنا الآن

اقلعت السفن في ١٠ اغسطس متجهة الى الجنوب الغربي وفي ٢٩ نوفمبر لمح مجلان جنوب اميركا عند رأس سانت اغسطين ومن ثم سار محاذياً لشواطىء اميركا الجنوبية حتى وصل الى مصب نهر لابلاتا فوقف فيه يبحث عن منفذ منه الى الجهة الاخرى من اميركا . وفي آخر مارس من السنة التالية وصل الى بورت سانت جوليان وهي على الدرجة ٤٩ والدقيقة ٢٠ من العرض الجنوبي فقضى فيها الشتاء . ووطد علائق الصداقة مع اهلها واطلق عليهم اسم البتاغونيين اي ذوي الاقدام الكبيرة

وغادر مرفأ سانت جوليان في ٢٤ اغسطس سنة ١٥٢٠ وبعد مسيرة شهرين تقريباً كشف رأس الاحد عشر الف عذراء عند مدخل المضيق المعروف الآن بمضيق مجلان في طرف اميركا الجنوبية . وطول هذا المضيق ٣٦٨ ميلاً وهو حافل بمخاطر البحار فقضى ٣٨ يوماً في اجتيازه بعد ما انفصلت عنه سانت انطونيو اكبر سفن الاسطول . وفي ٢٨ نوفمبر عقد مجلاس من ضباط السفن وربانيها لينظروا في مداومة السفر ، الا انهم بلغوا منتهى هذا المضيق الخطر في ٢٨ نوفمبر واطلوا على « البحر الجنوبي العظيم » فدعاه مجلان بالباسيفيك اي الهادئ لهبوب ريح لطيفة ساقت المراكب في تؤدة وطمأنينة

وقضى مجلان ورجاله ٩٨ يوماً في اجتياز هذا الاوقيانوس الزاخر الذي « يفوق التصور في اتساعه » ولم يكشفوا في هذه المدة سوى جزيرتين . وكان الطعام معهم قد قارب النفاد فلم يبق معهم سوى ماء قليل آسن وبسكويت عفن . واخذ داء الاسكربوط يفتك بهم وعضهم الجوع بنابه حتى صارت الجرذان وجلود الثيران والنشارة اكلاً

يحسد عليه من يستطيع الوصول اليه . اخيراً وصلوا جزائر لادرون في ٦ مارس سنة ١٥٢١ وقد دعاها مجلان كذلك لتفشي اللصوصية بين سكانها والراجح ان المرفأ الذي رسوا فيه كان مرفأ جوام . هناك اخذ الاسطول عدته من الماء والطعام وبعد ثلاثة ايام اقلعوا منها متجهين الى الغرب فساروا سبعة ايام شاهدوا في نهايتها جزيرة سامار وهي من جزائر الارخبيل المعروف الآن بالفيلبين . وفي ٧ ابريل وصلوا الى جزيرة سيبو في قلب الارخبيل فتصادق مجلان مع اميرها المشهور بالغدر وكان يدّعي انه مسيحي ليستخدم مجلان ورجاله في قضاء مآربه . وجهز مجلان حملة لاكتساح جزيرة مكتان ليضيفها الى امارة صديقه ولينشر فيها الدين المسيحي فقتله بعض سكانها في ٢٧ ابريل سنة ١٥٢١ فاتفق امير سيبو مع نفر من رجال الاسطول لينضموا اليه، ولما صاروا في قبضته ذبحهم ذبح الاغنام وبينهم جوان سرانو احد اميري البحر الذين انتخبا ليخلفا مجلان في قيادة الاسطول فاحرق الباقون احدى سفنهم وغادروا الفيلبين الى ملقا وبورنيو . وظهر خلل في السفينة ترنداد فتخلفت عن المسير في جزيرة تدور . فتولى قيادة السفينة الباقية « فتوريا » رجل يدعى جوان سبستاتيان دل كانو واقلع بها متجهاً الى اوروبا في ٢١ دسمبر سنة ١٥٢١ ولقي من المشاق والمصاعب في رحلته حول رأس الرجاء الصالح ما يفوق الوصف . ولما بلغوا جزائر الرأس الاخضر اسر البورتغاليون ثلاثين من رجالها فلم يصل الى اشبيلية من رجال الاسطول الاصليين سوى ٣١ رجلاً وكانت الفتوريا السفينة الاولى التي طافت حول الارض

ومع ان مجلان لم يصل الى جزائر الافاويه التي كانت غايته لانه قتل في الفيلبين لكن غرضه كان قد تحقق لانه في رحلته الاولى كان قد قطع خط الطول الذي وصله قبيل قتله وكانت طريق البحر من ملقا الى اوربا معروفة لدى البحارة الاسبان والبرتغاليين ومع ذلك لم ينل اسمه ما يستحقه من الظهور في التاريخ الا ان العلماء يرون انه واحد من الرواد العظام الذين نذكر في مقدمتهم كولمبس وماركو بولو. فانه حقق الخطة التي تخيلها كولمبس وطوافه حول الارض يوازي اكتشاف اميركا ، كلا العملين في الطبقة العليا بين اعمال المكتشفين والرواد

(مقتطف مارس سنة ١٩٢٦)

فاسكو دي غاما

مكتشف طريق الهند بحراً

احتفل البورتغاليون في الاسبوع الاخير من سنة ١٩٢٤ في عاصمتهم لشبونة والفرضة البحرية تاغوس بانقضاء اربعمائة عام على موت الرحالة الشهير فاسكو دي غاما مكتشف طريق الهند براً وصاحب الفتوحات الكثيرة على سواحل افريقية الجنوبية والشرقية . واشتركت في هذا الاحتفال بوارج كثيرة من اساطيل الدول

ولد دي غاما سنة ١٤٦٠ في بلدة سينز بمقاطعة المتيجو من اعمال البورتغال . وما يعرف عن حداثته قليل جداً . لكن اكتشاف كولمبوس لاميركا سنة ١٤٩٢ ورحلات بعض البحارة من الاسبان والبورتغاليين وغيرهم كان باعثاً لعمانوئيل الاول ملك البورتغال على ان يجهز اسطولاً من المراكب الكبيرة للسفر الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ووضع على رأسه فاسكو دي غاما الذي اشتهر من قبل في حروب البورتغال مع قشطالة وعرف بمهارته في سلك البحار

« فخرج فاسكو من مرفأ لشبونة باحتفال عظيم وشيعه الملك وعظماؤه ورجال بلاطه بين هتاف الرجال وزغردة النساء . فاجتاز السواحل الغربية واستولى على جميع السواحل والبلاد التي مر بها في طريقه حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح . ثم تحول بسفنه شمالاً واستولى على السواحل الشرقية فرسا أولاً عند بلاد سماها نتال واخذ بلاد كفروريا واكتشف في طريقه مدغشقر وجزائر القمور وانجوان ولم يزل يسير شمالاً محاذياً السواحل حتى وصل الى بلاد سفالا (موزمبيق) فاحتلها ورفع عليها العلم البرتغالي وهناك اكتشف مناجم الذهب القديمة التي كانت معروفة منذ القدم عند المصريين والرومان والعرب . ويقال انها بلاد ترشيش التي ورد ذكرها في سفر الملوك وقيل ان سليمان الملك كان يأتي منها بالذهب والفضة والقرود والعاج والطواويس (ملوك اول ص ١٠) وبنى فاسكو في اكثر البلاد التي احتلها القلاع والحصون ووضع فيها بعض الحامية من رجاله وجعلهم وكلاء له لشراء الذهب والعنبر والعاج وقد وجد الرحالون البرتوغاليون في اسفارهم هذه كثيرين من تجار العرب عند شواطىء نتال والترنسفال وموزمبيق يحملون تراب الذهب في الاكياس وينقلونها الى سفنهم

ويأخذونها الى زنجبار وعمان وشبه جزيرة العرب

ثم استولى على كل الممالك العربية الافريقية الشرقية وهي قطوة وسعداني وشيكوه وبثة وكلوه وبنجاني وملندة وكلها كانت ممالك زاهرة عامرة تحت حكم سلاطينها المستقلين من العرب وقد ذكر ابن بطوطه اكثر هذه البلاد وحكامها في رحلته المعروفة

ولما وصل ورجاله الى مصب نهر زمبسي الكبير ركبوا فيه بسفنهم وبنوا على ضفته القلاع والفرض وأقاموا فيها اناساً من قومهم للمحافظة عليها وفتحوا اسواقاً عظيمة التجارة

ثم استولوا على بقية الشواطىء الشرقية فرسوا في ممبسة وكانت وقتئذ مدينة تجارية عامرة فسروا بها لانهم لم يروا مدينة عظيمة مثلها وكان فيها بيوت فخمة وقصور ومبان فاخرة واسواق عظيمة . قال ملطبرون في جغرافيته القديمة « ان اهالي ممبسة كانوا قبل دخول البرتوغاليين من قبائل العرب العرباء وكلهم على حضارة يعيشون بالبذخ الترف وعندهم بعض العلوم والصنائع وكانوا ملمين باحوال التجارة ولهم فيها طرق مفتوحة في داخلية البلاد وسفنهم تمخر في انهارها وتتجر مع عمان وحضرموت والهند

ثم استولى القبطان فاسكو على سلطنة ملندة شمالا وكانت زاهية زاهرة كثيرة المباني واسعة التجارة ورأى فيها جماعة من البنيان وهم طائفة التجار الهنود فاخذ بعضهم الى سفنه ليدلوه على طريق الهند . وبعد ان استولى على سلطنات لامو وملندة وكلوة ومغدشو وجميع السواحل الشرقية وجزائرها وطد قومه اقدامهم فيها فبنوا فيها القلاع الحصينة ولم تزل آثارها باقية الى الآن وعليها كتابات باغتهم وعلى بعضها كتابات برتوغالية ازاء الكتابة العربية القديمة » . ثم واصل اسفاره حتى وصل الى الهند ورسا في كاليكوت على ساحل ملابار سنة ١٤٩٨ ونصب هناك عموداً من الرخام دليلاً على افتتاحه لتلك البلاد جرياً على عادة سار عليها البورتغاليون قبله . والظاهر ان حاكم كاليكوت الهندي احتفى به في البدء لكن التجار وذوي النفوذ خافوا على ضياع تجارتهم باكتشاف سلك بحري حول رأس افريقية الجنوبي قد يحل محل الطرق التجارية البرية فاقنعوا الحاكم بنهي دي غاما عن انشاء مستعمرة تجارية هناك . لكنه مكث مدة كافية اطلع في خلالها على احوال الهند وثروتها العظيمة ثم عاد الى بلاده عن طريق رأس الرجاء الصالح فوصل البورتغال في سبتمبر (ايلول) سنة ١٤٩٩ . واستقبله الملك احسن استقبال واكرمه ومنحه الحق ان يلقب نفسه « بالدوم » وقطع له معاشاً وارضاً

وتبع رحلة دي غاما الى الهند رحلة اخرى مؤلفة من ثلاث عشرة سفينة بقيادة

بدرو الفارز كبرال مكتشف برازيل فأسس مستعمرة تجارية برتغالية حال وصوله الى كاليكوت ببلاد الهند وبعد عودته قام اهالي البلاد على البرتوغاليين الذين تركهم في المستعمرة وقتلوهم جميعاً . فاخذت حكومة البرتوغال تستعد للاخذ بالثأر فجهزت عشر سفن مسلحة في لشبونة عاصمتها والقيت مقاليد قيادتها الى كبرال اولاً ثم جعل دي غاما قائداً لها ومنح لقب اميرال الهند . وغادر البرتوغال في اوائل سنة ١٥٢٠ ولما وصل الى الهند امام كاليكوت اطلق قنابله عليها ونزل الى البر فبطش بأهلها . ثم سار من كاليكوت الى كوتشن ومن بعد ان عقد معاهدات تجارية معها ومع مدن اخرى على الشاطىء بينها وبين كاليكوت قفل راجعاً الى لشبونة في سبتمبر ١٥٠٣ وسفنه ملآنة بالتحف . فاحتفي به وبمساعديه ومنح امتيازات جديدة وزيد معاشه

بعد رجوعه من رحلته هذه اعتزل الاسفار وسكن في داره بايفورا إما لعدم رضائه عما ناله من العطف الملكي لانه كان يطمع بأعظم من ذلك او ليتمتع بامتيازاته الكثيرة وثروته الطائلة لانه كان قد صار من اغنى اهالي البورتغال وكان قد تزوج سنة ١٥٠٠ سيدة غنية من عائلة شريفة ولد له منها ستة اولاد . وبقي من مستشاري ملك البورتغال في مسائل الهند والسياسة البحرية الى سنة ١٥٠٥ ويؤخذ من وثائق تاريخية انه بقي متمتعاً بالعطف الملكي من ١٥٠٧ الى ١٥٢٢ . ومنح سنة ١٥١٩ لقب كونت على مقاطعة فيديجويرا

واتسعت فتوحات البورتغاليين في الشرق فعهد بادارتها الى خمسة حكام بالتتابع كان خامسهم ضعيف العزم سقيم الرأي فاختلت الامور في ايامه . فاستدعى الملك يوحنا الثالث خلف عمانوئيل فاسكو دي غاما من عزلته وسماه نائباً للملك في الهند فغادر لشبونة في ابريل سنة ١٥٢٤ ليتقلد منصبه الجديد وله من العمر حينئذ ٦٤ سنة

وحالما وصل الى جوى عاصمة المستعمرة البرتوغالية في الهند بعد سفر خمسة اشهر اهتم باصلاح ذات البين فيها ولكن لم يفسح في اجله طويلاً ليتم هذا الاصلاح لانه اصيب بحمى في كوتشن وتوفي ليلة عيد الميلاد سنة ١٥٢٤ ودفن فيها اي منذ اربعمائة سنة ثم نقلت رفاته الى فيديجويرا سنة ١٥٣٨ فالى كنيسة القديسة ماريا في بلم سنة ١٨٨٠

ونتج عن رحلاته هذه ان زادت ثروة البرتوغال فصارت في المقام الاول بين دول اوربا في ذلك العصر ومهد السبيل للاستعمار الاوربي في الشرق باكتشاف طريق البحر اليه حول رأس الرجاء الصالح (مقتطف فبراير سنة ١٩٢٥)